

الإمام ابن عبد الوهاب وجهاده في سبيل العقيدة

وقد كتب في ذلك كثير من المتقدمين والمتأخرين، إلى أن أخرج الله تعالى مجدد القرن الثاني عشر محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي الحنبلي رحمه الله، المولود سنة ألف ومائة وخمسة عشر، والمتوفى سنة ألف ومائتين وست للهجرة. لما تعلم مبائ العلوم في بلده، ثم تنقل إلى مكة وإلى المدينة وإلى العراق وإلى الشام وتزود من العلوم، تصر بما عليه أهل زمانه في كثير من البلاد، حيث عبدوا القبور، وصرقوا لها خالص حق الله تعالى، وأشركوا الشرك الظاهر، الذي هو شرك الأولين. ولما اتبته لذلك دعا إلى التوحيد الصحيح الذي هو حق الله على العبيد، وبين أدلته بيانا واضحا؛ فلذلك كفره واصله القبورون الذين فتوا بالقبور، وسموه صلا مصلا! ووقف الله تعالى من تابعه من أهل العلم، ووافقوا ما يقوله، وأبدوا طريقتهم بما كتبه في أزمنة متفرقة، ومن بلاد بعيدة أيها ما قاله، ومنهم عالم صنعا: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رحمه الله لما جاءه خبر دعوة الشيخ رحمه الله أرسل إليه تلك القصيدة الدالية مطلعها قوله: سلامي على نجد وقتن جدّ في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يُجدي ويوصي فيها الأمير فيقول: فقي وأسألي عن عالم حل سوجها به يهتدي من صل عن منج الشيخ محمد الهادي لَشْتَهَ أَلَمَ حَبِداً هَادِي وَيَا حَبِداً مَهْدِي! لقد سرتني ما جاني من طريقه وكنيت أرى هذي الطريقة لي وحدي! يذكر فيها أيضا البدع التي حصلت، وبالأخص فيما يتعلق بالقبور، ويذكر أنها عُبِدَتْ من دون الله فيقول: أعادوا بها معنى سبوع ومنله بغوث وود بنس ذلك من وُدِّاْ وكَم عَقَرُوا من سوجها من قفيرة إهتِكْ لغير الله جهراً على عمد وكَم طائف حول القبور مقبل ومستملم الأركان منهم بالأبدى هذا دليل على أنه لاحظ ما في بلاده وفي البلاد الأخرى من الغلو في القبور، وعبادتها من دون الله، وأن أكثر أهل ذلك الزمان عبدوا غير الله، صرفوا العبادة لهؤلاء الأموال. وكتب أيضا عالم في أقصى البلاد الهندية، يقال له: الملا عمران بن رضوان ساكن لنجة لما جاءته دعوة الشيخ رحمه الله في تكفيره: لأن أهل زمانه -صاروا- وأهل بلاده بكفروا؛ يكفرون الشيخ، فكذب إليه: أن أرسل إلي ملخصا عن دعوتك، وبعضا من كتبك. فأرسل إليه الشيخ كتابه: كشف الشبهات، وبعض الرسائل، وكان أهل زمانه قد نظموها قصيدة يردون بها على الشيخ وعلى دعوته، فرد عليها هذا العالم من أقصى البلاد، بقصيدة منشورة موجودة في كتاب ابن سحمان الذي سماه "الضياء الفشارق"؛ مطلعها قوله: جاءت قصيدتهم تروح وتغندي في سب بيت الهاشمي المحمدي هذا أولها، حتى ذكر أنهم عابوه؛ عابوا الشيخ بأنه في بلاد مسيلمة فيقول فيها: قد عبروه بأسماء في وابي حنيفة فإن من لم يسعد قلنا فمن ما صرَّ مصرَّ كاتب لفرعون الشقبيُّ الأبعد يقول فيها: الشيخ شاهد بعض أهل جهالة يدعون أصحاب القبور أهَّؤد تاجا ومقدسانا وما ضاهما من قبة أو تربة أو مشهد قالوا له: يا فاجر يا كافر ما صرَّه قول العادة الحسد قالت قريش قبله للمصطفى يا سحر يا كاهن يا معدي قالوا يؤم المسلمين جميعهم للكفر، قلنا: ليس ذا بمؤكد يعني: آيات قوية في تنفيذ شبهات أولئك المصلين، مع بعده عن البلاد، ولكن لما اتضح له الحق جهَّز به. ولا يزال أهل السنة يجهرون بالحق، ويقولون به، ولو خالفهم من خالفهم. ولما أظهر هذا العالم دعوته نبذ أهل بلاده، ولقبوه بالوهابي، فافتخر بذلك، وله قصيدة بائنة مطبوعة مشهورة، يقول في أولها: إن كان تابع أحمد متوهبا فأنا المصغر بأبني وهابي أنفي الشرك عن الإله فليس لي ورع أو ناب لرجاء نفع أو لدفع ليلية الله ينفعني وئن ولا قبر له سبب من الأسباب كلا ولا حجر ولا شجر ولا عين ولا نصب من الأنصار أيضا ولست معلق لتيممة أو حلقة أو دعة أو رب لرجاء نفع أو لدفع ليلية الله ينفعني ويدفع ما بي إلى آخرها... يذكر فيها عقيدته. فنقول: إن هذا دليل على أن الحق واضح، وأن من عرفه قال به. ولكن أعداء الله ينفرون عن الحق، وينفرون عن التوحيد، بلما يفقهون من الأكاذيب، وما يكتبونه من الشبهات التي يصلون بها أتباعهم، ولهم إغراض في ذلك كثيرة، فمنها: أنهم يخشون أنهم إذا تركوا عبادة القبور يصلوا أتباعهم في نظرهم، أو يصلون أسلافهم ومشايتهم الذين كانوا على هذه الطريقة، كما قال المشركون: { أَوْبَاتُوا أَلْوَالُونَ } { إِهْمُ عَنَّا أَبَاءَهُمْ صَالِحِينَ قَوْمٌ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْتَرُونَ } . وقيل: إنهم يخشون مصالح دنيوية، يخشون أن تقوت هذه المصالح، فإن كثيرا منهم لهم دخل من تلك المشاهد؛ حيث إن العامة يأتون إليها، فيلقون عدوا القبور والفقود والفقير، وتكون تلك الأموال نفقات لأولئك السادة، أو لأولئك القادة، فيحصلون على أموال طائلة بسبب الجيلة الذين يتوافقون على هؤلاء الأموال وهذه المشاهد. وقيل: لأنهم يخشون أن تبطل مكائبتهم وساداتهم؛ وذلك لأن العامة يخشونهم، ويرفون من مكائبتهم، ويقومون حولهم، ويتمسحن بهم، ويعترفون بفضلهم، فإذا تبعوا الحق سقط قدرهم عند العامة، وصاروا كسائر الناس، ولا أحد يقدرهم ويقدمهم، وتفسط مكائبتهم، يعني: هذا مما خافوه. والآخرون إنما يخشون على مصالح وجرایات يجربها لهم رؤسائهم وساداتهم، يقولون: إذا قمتم على هذا العمل فإننا سوف نخزي لكم جرأتنا، وتعطيكم رواتب، وتغدق عليكم الأموال، وإذا تركتم ما نحن عليه وصرتم إلى غيرهم قطعنا عنكم هذه المصلحة؛ فلذلك تمسكوا بهذه الأموال -الأقوال المتبدعة- وانتشرت كتبهم -والأسف- التي فيها دحض الحق، والتي فيها الأكاذيب، فرد عليها العلماء الأجلاء قديما وحديثا. كان من جملة أولئك الدعاة المصلحين علماء من العراق قبل ولوم مكة ومن غيرها، ومن تركيا من جعلتهم: دحض زين الدحلان ألف كتابا له يمكن أنه موجود بكثرة، وسماه: الدرر السنية في الرد على الوهابية، ولما أنشئت مطبعة الحكومة في سنة ألف ومائتين وخمسين، كانت مكة في ذلك الوقت تحت ولاية الترك، صاروا يطبعون هذا الكتاب، الذي هو مليء بالأكاذيب، مشحون بها، كل سنة بطبعونه، والكتب في ذلك الوقت قليلة، ثم يفرق على الأفرقة، وعلى الأشوام، وعلى الهنود -كل سنة- يعني أكثر من خمسين سنة، وهو يفرق على هؤلاء، وإذا ذهبوا به وقرعوه، وإذا فيه هذ عن القطائع في عقيدة الوهابية، وأنهم يقولون كذا ويقولون كذا وأنهم واهلون، أنه له عالم هندي من أقصى بلاد الهند لما طبع فتح المجيد، وطبع بعض كتب أئمة الدعوة، وقابل ما يقول، وإذا هو بعد عن الصواب. حج مرة -وهو محمد بنشير السهسواني- وقابل زين الدحلان وأناقشته في هذا الكتاب، وطبع ذلك قال -تمسخرنا- إن كنت ذا قدرة فعد علي! فقال: سر أورد عليك. ولما رجع إلى الهند رد عليه، ورَّدهُ موجود، اسمه: "صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" . طبع عدة مرات. كذلك أيضا، عالم من هؤلاء المتماثلين في سوريا يقال له: يوسف النبهاني له أيضا كتاب في الرد على ابن عبد الوهاب في زيارة النبي المكرم -هذا الذي سطر عنوانه- انتشر كتابه، وطبع عدة مرات وطعن فيه على ابن عبد الوهاب أيضا فقطع على ابن عبد الوهاب المتقدم في... ابن تيمية لأنه طبع له كتاب اسمه "الصارم المنكي في الرد على الشيعي" . وطعن أيضا على عالم عراقي وهو النعمان الألوسي لأنه طبع كتابه، أو ألف كتابه "محاكمة الأحمدين" ورجح ما يعيل إليه ابن تيمية فلما طبع كتابه هذا الذي هو النبهاني واشتهر، كتب أحد الإخوة أحد المشايخ في جده وهو الشيخ محمد نصيف -رحمه الله- إلى عالم في العراق، وهو محمود شكري الألوسي يطلب منه الرد على النبهاني فابتدأ رحمه الله في الرد عليه، وألف الرد في أقل من سنة. ولما أرسله إلى محمد نصيف تبرع محمد نصيف أن يطبعه على نفقته، وطبع في مصر وقرره علماء كثيرون، ثم أعيد طبعه أيضا، واسمه: "غاية الأمان في الرد على النبهاني" . فبذلك تعرف أهل الشير إلى محمد نصيف تبرع محمد نصيف أن يطبعه على نفقته، وطبع في مصر وقرره ألف ومائتين وثمانية عشر، لما فتحت ديارها المسلمون، ولم يقابلوا فيها، وإنما دخلوها كحمرين، وهرب من كان فيها من المنبذعة، وبقي أهلها فجمعوه، وكان مفتيهم علم الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولما جمعوهم وأخذوا بجهونهم بما يدعون إليه، أخذ أولئك الذين من مكة بغيره، فيقولون: إنكم تكفرون بالله من ستمائة سنة، فقال: كلا، إنكم تقولون لمن أراد أن يدخل في دينكم: اشهد أنك كنت كافرا على نفسك، فقال: كلا هذا كذب. إنكم تقولون لمن مات أبواه: اشهد على أبويك أنهما في النار! فقال: كلا، ما كنا نقول هذا. إنكم تأمرون من حج حجة الإسلام أن يعيد حجه، تقولون: إن حجتك تلك حججتها وأنت كافرا! فقال: كلا، لا نقول هذا. وأشبهه ذلك من هذه الشبهات، كلما أدلوا إليه بشبهة يقول: سبحانك! هذا بهتان عظيم، ما نقول شيئا من هذا، حتى قالوا: إنكم تنمعون من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم! فامتنع من ذلك وقال: لا تقول به، بل لو أن إنسانا أفنى عمره في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لأبدناه وحمدناه على ذلك. إلى غير ذلك مما يقولونه، إنكم منبذة، إنكم خوراج، إنكم... فالحاصل أنه ألف لهم رسالة، وطبعته في كتاب اسمه: الهدية السنية، والهدية الوهابية النجدية. في مجموعة رسائل. هذه بين فيها -رحمه الله- لأهل مكة ما كانوا يعتقدونه وما يدعون إليه، وأن طريقتهم إنما هي التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والنهي عن عبادة من سواه، وبين أن ما يتلقون به من تلك الشبهات لا دليل فيها، وأنها كلها شبهات وضلالات. فالحاصل أنه ظهر الحق والحمد لله واستنار، ولكن -مع الأسف- لا يزال كثير من عبيدين وقريبين- يبسبون الظن بهذه الدعوة وبأتباعها، ويحذرون منهم، فيعتقدون أنهم أكثر من اليهود وغيرهم، حتى ذكر لنا بعض مشايخنا عن شيخ يقال له أحمد البكري كان يسافر إلى الهند بعدما طبع كثيرا كتاب دحلان وينتشر هناك، فيحضر حلقة عالم عربي، يتكلم بالعربية وهو هندي، ثم يبشر تلاميذه، فإذا انتهى من شرحه استقبل القبله، وأخذ يدعو على ابن عبد الوهاب ويلعنه وبشتمته، وقرَّ حوله يؤمنون، وفردوا إليه الكبرياء، وأراد أن يقنعوه، وذلك لأنه لا يقبلون شيئا باسم ابن عبد الوهاب فأخذ كتاب التوحيد وترع منه الصفحة الأولى التي فيها اسمه، وقال: يا أستاذ أريد أن تقرأ هذا الكتاب، فذهب به، وقراه في بيته، وأعجب به، وقال: هذا كتاب قيم، عليه أنفاس الشيخ محمد بن إسماعيل البخاري! لما قرأه وأعجب به قال: مَنْ هو صاحب هذا الكتاب؟ فعند ذلك جاء بنسخة أخرى عليها اسمه، فقال: هو هذا! فلما قرأه قال: ابن عبد الوهاب الكافر! الذي كنا تكفروا؟ قال: هذه عقيدته، وهذه دعوته، إن كنت تنكرها فرد عليه، وإن كنت معجبا بها، فعند ذلك اهتدى هذا الهندي، وأخذ يدعو له بدل ما كان يدعو عليه. أما كثيرون من تلك البلاد فإنهم ينفرون تنفيرا كبيرا عن من ينتسب إلى الوهابية في ذم، حتى ذكر أن أحد علماءهم في بقالة، فجاء إليه أحدهم وقال له: صبرني، يعني أعطني ديننا حتى أتيتك بعد يومين، فامتنع فقال: لا أصبرك ولا أعطيك الدين. فقال: إني إذا أنكر الناس عنك، ذهب إلى أبي الناس وعقلهم. إن ذلك اليهودي تحول وهابيا! فلما قاله، قالوا: برئنا منه! نبرأ إلى الله! لا نابعه ولا نشتري منه شيئا أبدا! فانقطعوا وبقي عشرة أيام أو عشرين يوما لا يأتيه أحد يشتري منه. جاء إليه صاحبه وقال: أنا الذي نفرت الناس عنك، فقال: ردهم عليّ وأعطيتك ما تريد. فذهب إليهم وقال: إنه تحول إلى يهوديته وترك الوهابية! فرجعوا إليه، فصار لا شك أنها . لعنة! دليل على أنها أشربت قلبهم بسبب تلك الأكاذيب التي نشرها أبائهم، ورَّين لهم أنهم أكثر من اليهود... تعود بالله. الشيخ رحمه الله محمد بن عبد الوهاب كتب كذا العبادة، فجعله هو الأهم، وما إذا إلا لأن الخلاف فيه له أهل زمانه، أهل زمانه الذين وقعوا في هذه الشراكيات، كما ذكرنا. في كتابه: كتاب التوحيد، هو أول ما كتب فيما يتعلق بتوحيد العقلاء، حين استوفى ما يتعلق بالتوحيد، وما يقدح في التوحيد مما له صلة فيه، ثم أنه جهد فردي. كذلك أيضا لما اشتهرت دعوتك كتب إلى علماء تلك البلاد -كتبوا من الأحساء وكتبوا من العراق وكتبوا من الحجاز فقالوا: كيف تكفروا؟ وكيف تجعلنا مثل المشركين الأولين؟ نحن نصوم ونصلي، ونحج البيت ونعتمره، ونؤدي الزكاة، ونؤدي النفقات، ونحج أحج الحلال، ونحرم الزنا، ونحن نحرم المحرمات، ونقرأ القرآن، ونقرأ الأحاديث النبوية، ونشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمدا رسول الله؛ وكيف تكفروا، ونحننا من المشركين الأولين؟ فأجابهم بكتابه المشهور الصغير الذي سماه: (كشف الشبهات). كشف الشبهات هذا جواب أولئك المشركين، ثمَّا أنهم أفسدوا عقولهم، ولكن لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا الله، حيث جعلتم على الله تعالى آلهة أخرى، فلا بد أنكم تحقون معنى لا إله إلا الله. ولا فلا تكفركم هذه الكهنة، وأنتم تبطلون مدلولها بعبادة غير الله. فإذا قلتم: نحن لا نعبد إلا الله، قال: بلى، تعبدون الأموات، وتعبدون الأولياء والشهداء والصالحين الذين هم أموات مدفونون، تعبدونهم من دون الله تعالى، ولكنكم ما سميتموهم آلهة، وإنما سميتموهم سادة أو أولياء أو شهداء أو شغفاء، أو نحو ذلك. والأسماء لا تغير الحقائق، فإن العبرة بالحقائق لا بالأسماء. كذلك أيضا سميتم أفعالكم بغير اسمها الحقيقي، فسميتموها توسلا وتشغفا وتبركا وتقربا وتزلفا ومحبة، وجعلتموها: جعلتم ذلك دليل المحبة، ولا تتفكع هذه الدلائل، ولا تتفكع هذه المسميات، فإنه لا فرق بين فعلكم وفعل الأولين، فأنتم تدعونهم، وأولئك يدعونهم، وأنتم تقولون: نريد شفاعتهم، وهم كذلك يقولون: نريد شفاعتهم، وأشبهه ذلك. ما قرأ كتاب الذي سماه (كشف الشبهات) وجد فيه الجواب الشافي الذي رد به ما ردا قلتم، ذكر لنا بعض أهل العلم، قال: نريد شفاعتهم، وأشبهه ذلك. ما عرف شبيئا إلا أنني حفظت منه كلمتين، ما هي؟ قال: يقول: اعرفوا الله بأفعاله، وودوه بأفعالكم. قال: رَّهَّها، فردها خمس مرات، فعند ذلك تذكر هذا الشيخ العظيم وقال: هذه مقالة عالم، هل مكك شيء من كتبه؟ فأعطاه (كشف الشبهات). يقول: فقرأه في تلك الأيام أكثر من عشرين مرة، حتى عرف حقيقة ما يدعو إليه، فعند ذلك تاب من بعد ذلك، ونظم قصيدته المشهورة التي هي من باب الرجز، هي التي أولها يقول: أحمدته محوقلا محسبلا محجولا محوقلا مسحبلا والتي ذكر فيها دعوة الشيخ رحمه الله: فانقسم الناس فمنهم شارذ مخاصم للحق أو معاند يعني: الذين عصوا دعوتك. فالحاصل: أنه هداه الله تعالى بسبب هذه الكلمة، وبسبب هذه الرسالة، إلى أن قد أدرك زمن الشيخ -يعني قبل وفاته- ولكن ما اهتدى إلا في آخر عمره لما كان عمره ثمانين سنة، ولما سئل بعد توبته بسنة كم عمرك؟ فقال: ستان! كيف؟ قال: أول العمر لا أعده، لأنني لست فيه بمستقيم، حمد الله تعالى على هدايته بسبب هذه الرسالة. أما رسالته، التي هي (ثلاثة الأصول) فألفها للعامه، وكان عامه التي نجد قديما من عهد الشيخ ابن عبد الوهاب إلى زماننا لبقينها العوام في المساجد محترمة، فيقولون: من ربك؟ فيقولون لا يقول: أبو الله الذي رباني ورَّيَّ جميع العالمين نعمته. وقرَّ معبودك؟ معبودي الله، فكما خلقنا لعبادته، وأمرنا بها { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } . لأى شيء خلقك الله؟ خلقني لعبادته، ما أرى شيء فرضه الله عليك؟ بأي شيء عرفت ربك؟ ما أكبر آياته؟ وما أكبر مخلوقاته؟ ويذكرون أدلة ذلك كما هو مذكور في (ثلاثة الأصول)، إلى أن يقول: ما بدنيك؟ ما هو الإسلام؟ من نبيك؟ ويذكر فيها شيئا من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنها ترسخ العقيدة، مبادئ العقيدة، يعني معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالعبادة، ترسخها في أذهان العامة. وأدرنا أيضا الآيات لبقينوا الأطفال الذين في سن السنة الثالثة والرابعة وما بعدها معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام؛ حتى ينشأ الطفل على هذه العقيدة، ثم رسالته هذه التي هي أربعة قواعد، رسالة أيضا تتعلق بالتوحيد، تتعلق بتقرير توحيد العبادة، الذي هو إخلاص العبادة لله، وتناقض المشركين القبوريين الذين يدعون الأموات من دون الله، وبين حقيقة هذه العقيدة، وحقيقة هذا التوحيد، وهي بلا شك رسالة ألهة مفيدة لمن تأملها وتدبرها. ولا شك أنها جديرة أيضا بالاهتمام كسائر كتبه. وله أيضا -رحمه الله- كتب أخرى تتعلق بالتوحيد، منها رسالة مطبوعة في مجموعة رسائل للشيخ اسمها: "مفيد المستفيد بكفر تارك التوحيد" ضمنها أيضا تقرير التوحيد بأدلته، وغير ذلك. ثم سار تلامذته وأولاده وأحفاده على منهجه وطريقته، فكتبوا رسائل كثيرة في تحقيق التوحيد، وفي مناقشة شبهات القبوريين، والصالحين المصلين، وذلك لأنهم أطلعم الله تعالى على تلك الأدلة، وكذلك أيضا لما كثر الذين في زمانهم يردون الأحاديث الصحيحة، ويتعلقون بشبهات يتبذرون بها ما يدعون إليه من عبادة الأموات ونحوه، كان لا بد من مناقشة رسالتهم، ومن الرد عليهم، وبكل حال فإننا نتواصي إلى نجد ونجدهم فيما يتعلق بتوحيد العبادة، الذي هو حق الله تعالى على العبيد، وإن نقرأ في مؤلفات الشيخ، ومؤلفات تلاميذه من أولاده وأحفاده وتلاميذهم، حتى نعرف بذلك ما تهدف إليه الشريعة الإسلامية من إثبات حق الله سبحانه وتعالى، وهو عبادته، وإخلاص الدين له، وترك الالتفات إلى غيره، أيا كان ذلك الغير. وهذه الرسالة كنا قد شرحتها في مثل هذه الحلقا، ولكن لا مانع من أن نشرحها، مع أن معانيها ظاهرة والحمد لله، لا سيما لطلبة العلم، ولعلنا نشرحها شرحا موسعا؛ لأنه يمكن أن يشرها الشارح في حلقة واحدة في مجلس واحد، لظهور أدلتها، وإذا أراد التوسع والاستطراد فيمكن التوسع في معانيها. ولعلنا نقتصر هذا اليوم على هذه المقدمة، والدرس الآتي صاحا: إن شاء الله، نبداً في المقدمة، في مقدمة الرسالة، وكذلك نقرأ القاعدة الأولى، وكذلك عدا بعد العصر أيضا نقرأ فيها، ثم أيضا صبح يوم الثلاثاء.